إن الريح تهب حيث تشاء . ويبـدو أن النسيم الذي كان يهب يومذاك من جهة الغرب قد وصل الى روسيا . وفي مؤتمر الكنيسة الذي عقد عام ١٥٥١ هاجم إيڤان في الوقت نفسه اخلاقية الكنيسة وشرعية حقوقها في امتلاك أملاكهـا الواسعة . وكانت عاصفة الإصلاح تضرب أوروبا الغربية يومذاك وينسمع في موسكو هزيم غامض لما يحدث هناك من رعود .

وقد ارتفعت في الكنيسة نفسها بعض المطالب بالإصلاح وربما كان ذلك بتحريض من سيلڤستر أو من أرشمندريث دير سيرجي تروتيسكي الجديد أن عنقـد المؤتمر . وكان المتروپوليت ماكاري باعتباره خادماً متواضعاً لله يرضى بإخضاع الكنيسة للنقد إن لم يكن للعقـاب ولكن الإيحـاء بذلك لم يأت منه . كان ميالاً للصلاة اكثر من ميله للنقاش ، والصلاة الطويلة لا تؤدي في بعض الأحيان إلا الى عرقلة الأعمال . كما أنه كان ميالا ــ وهو المحبوب الحصيف لا شك في ذلك ــ الى البخل النابع عن التقى كما لو أن إنذار « أنا إلهك الإله الغيور » يتضمن الغيرة على كل شيء أعطي لله من أن يعطى لأحد من بني البشر : أما في موضوع الأخلاق فإن فكرة أن أم المسيح يمكن أن تكون شيئاً آخر غير أن تكون عـذراء قد رفضت بكل عصبية .

والواقع أن مؤتمر عام ١٥٥١ لم يضم إلا القليل من الناس . ومهما يكن من أمر فإن قصر القيصر لم يكن فيه مكان يتسع لمجلس عام يضم رجـال الدين مـن الروس ، فكان الحضـور تسـعة أسـاقفة وكل الأرشمندريتات وكل رؤساء الأديرة والمتروپوليت نفسه ، وقد استقبلهم القيصر مع مجلسه من البويار لدرجة انهم بدوا وكأنهم مدعوون للمثول أمام محكمة من العلمانيين .

وكان معظم أعضاء الإكليروس يعتقدون بدون شك انهم أحضروهم للموافقة على مجموعة القوانين الجديدة ومباركتها ، وكان ذلك في الواقع أول عمل من أعمال المجلس . وفي خطاب كان إيڤان قد القى بعضه على